

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 01 بعنوان:

"ماهي السينما؟"

هل السينما وليدة التكنولوجيا أم حاجة فنية سعى إليها الفنان (الإنسان) للكشف عن الواقع والطبيعة؟.

تُعدّ السينما فنا مركبا يتجاوز حدود التقنية إلى فضاء الإبداع الإنساني، إذ لم تكن وليدة الصدفة التقنية بقدر ما كانت استجابة لحاجة جمالية وفكرية عميقة لدى الإنسان – الفنان – للكشف عن جوهر الطبيعة والواقع.

ومن هذا المنطلق، تُعرف السينما بأنها الفن السابع، وهو الوصف الذي صاغه المنظر السينمائي الإيطالي 'ريتشويوتو كانودو' حين جمعها إلى مصاف الفنون الجميلة، باعتبارها ملتقى الفنون جميعها ومجال تفاعلها.

أما من الناحية الاصطلاحية، فمصطلح "Cinéma" مشتق من اللفظة الإغريقية القديمة "Kinéma" التي تعني "الحركة" (Le Mouvement)، وقد تطوّر معناها ليشير إلى فن عرض الصور المتحركة والثابتة المصحوبة بالأصوات أمام جمهور داخل قاعة عرض مخصصة، مقابل مبلغ مال.

أما لفظ "Cinematography" فيحمل دلالة أدق، إذ يعني "التصوير الفوتوغرافي المتحرك"، وهو التعبير الذي يمثّل جوهر الوسيط السينمائي الذي منح السينما مكانتها كفن سابع ضمن منظومة الفنون الجميلة.

وقد اختلف النقاد والمخرجون في تحديد ماهية الفن السينمائي. فالمخرج الروسي 'سيرجي إيزنشتاين' يرى أن السينما "تجميعٌ شامل لمختلف الفنون"، وأنها تسعى إلى بلوغ أقصى أشكالها عبر السينما الناطقة الملوّنة المجسّمة. بينما يذهب المخرج الفرنسي 'جان إبشتين' إلى اعتبار الصورة السينمائية "حقيقة متحرّكة"، مؤكداً أن الحركة تمثّل القيمة الجوهرية للصورة على الشاشة.

أما المخرج 'لوي ديلوك' فقد منح الصورة بُعداً شاعرياً، إذ رأى فيها تعبيراً عن الحقائق العاطفية عبر عناصرها البصرية والإيقاعية، في حين وصفها المخرج 'أبيل غانس' بأنها "موسيقى الضوء" التي تمتزج فيها الفنون التشكيلية بالموسيقية.

وتاريخياً، كانت كلمة 'فيلم' تُطلق على الشريط السينمائي ذاته، أي ذلك الشريط المرن الطويل الذي يحمل الصور الفوتوغرافية المتحركة، ثم اتسع معناها لتشمل مجمل الفعاليات المرتبطة بالصناعة الفيلمية. ويرى المخرج الفرنسي 'جون كوكتو' أن "السينما هي كتابةٌ بالصور"، بينما شبهها 'لويس ديلوك' بنظرية هندسية دقيقة، مؤكداً أن جمالها يقوم على الاختيار والتنظيم والتوليف الفني لعناصر الواقع. ومن هذا المنظور، تُعدّ السينما فن الزمان والمكان معاً، إذ تصهر في بوتقتها أشكالاً متعدّدة من الفنون الأخرى، ما جعلها تُوصَف بـ"تراسل الفنون".

ولعل هذا التداخل الجمالي هو ما جعل محاولات المنظرين الجماليين لتعريف "السينما الخالصة" محاولات نسبية غير مكتملة.

أما المخرج الروسي 'أندريه تاركوفسكي' فقد أكد خصوصية السينما كفن مستقل له لغته ومقوماته الخاصة، وفي مقدمتها السرد البصري الذي يمنح الصورة قدرة على نقل الفكرة والتواصل مع المتلقي على نحو مباشر وعميق. وبالتالي، فاللغة في السينما ليست إنتاجا فنيا، بل إنتاجا مصدره الطبيعة، شأنها في ذلك شأن الإنسان نفسه.

بينما يعود ميلاد السينما انطلاقا من النص الأصلي، وهذا وفقا للاستشهاد الآتي:

"La plupart des historiens du cinéma ont fixé la date de sa naissance au 28 décembre 1895, jour de la première représentation de la cinématographie des frères lumière en France, dans les sous-sols du grand café a paris".

وإذا كانت التكنولوجيا قد أسهمت في تحقيق هذا الفن، فإن جذوره تمتد إلى الدوافع الفطرية الأولى للإنسان، الذي سعى منذ بداياته إلى محاكاة الزمن وإعادة إنتاجه لأغراض نفسية ورمزية، فجاءت فكرة عرض الصور المتحركة تجسيدا عمليا لهذه الرغبة الإنسانية القديمة في استعادة الحركة والزمن.

لقد مرت السينما بمرحلتين أساسيتين في تطورها:

1. مرحلة الفيلم الصامت: حيث ارتكز التعبير الفني على السرد الأدبي والبصري دون اللجوء إلى الحوار والصوت والمونتاج، معتمدا على الصورة وحدها بوصفها أداة واعية لنقل الأحداث وتكوين المعنى عبر لغة الكاميرا.

2. مرحلة الفيلم الناطق: التي مثّلت النضج التقني والجمالي بدخول الصوت والمونتاج إلى معترك الإبداع السينمائي، مما أتاح تفاعلا أعمق بين الصورة والصوت، وفتح آفاقا جديدة للتعبير الرمزي والدلالي.

وهكذا، فإن السينما ليست مجرد صناعة تجارية أو إنجاز تقني، بل هي لغة بصرية دلالية تتجلى من خلال منظومة من الرموز والإشارات (الألوان، الزوايا، الحركة، الإضاءة، المونتاج...) التي تتكامل لتكوين خطاب بصري متكامل.

كما أن للصوت دورا دلاليا موازيا للصورة، إذ يثريها ويعمّق معناها، سواء أكان صوتا داخليا أو مؤثرا خارجيا، ليصبح جزءا لا يتجزأ من التجربة الجمالية السينمائية. وبفضل جهود المخرجين والمنظرين والتقنيين الأوائل، تأسست السينما كفن مكتمل الأركان يجمع بين الحس الجمالي والدقة التقنية، ليغدو هذا الفن العظيم مرآة للإنسان وللعالم في آن واحد.

المكتبة البيبليوغرافية:

*_France illustration, v°2, 1946

*مارسيل مارتن : اللغة السينمائية والكتابة بالصورة، ترجمة فريد مزاوي.

*يوري لوتمان، قضايا علم الجمال السينمائي، تر: نبيل الدبس